حوار الفلاسفة

للاستاذ زكي نجيب محمود

ومن أحق من الفلاسفة بالبحث العاجل والنشور السريع ؟ وهل تظن أن تلك القبور الضيقة المقفرة تستطيع أن تضم في جوفها هذى العوالم الفسيحة العامرة حينا طويلا من الدهر ؟ أفتظن أن تلك الأجداث الشرهة التي لا تنفك فاغرة الأفواه تلتهم الفريسة تلو الفريسة بقادرة على سحق هذى العقول الجبارة ، وأثارتها نقعا تسفيه الريح مع الهباء ؟ أم كنت تحسب أنهم بشر كالذي عهدت من بشر ؟ كلا ! فاولئك الفلاسفة جبابرة عتاة ، لا تكاد تلقاهم يد الموت حتى تسلمهم الى حياة الخلود والبقاء ، وعندئذ يلتئم الصدع الذي ضربه الدهر بينهم ، فتأتلف منهم القلوب وتمتزج النفوس ، كأنما دفعهم الله الى الوجود كتلة واحدة منذ الأزل ، فنثرتها يد الدنيا ، وفرقت أجزاءها على تعاقب الدهور ، ثم عادت اليوم سيرتها الأولى ، وحدة متحابة متآخية .

ولست بهذا الحديث أفتري منكراً من القول . إنما أقص عليك حديثا تحدر من الشفاه واهتزت به الآذان ، فأسوقه اليك كما وقع :

هناك في الملأ الأعلى ، انعقدت طائفة من الفلاسفة بالأمس القريب ، ولم يكد جمعهم يستوي فوق الأرائك ، حتى نهض من الحضور أقدمهم عهدا بدار الخلود — سقراط — وأخذ يشير بيمناه الى الجلوس واحداً فواحدا ، في تؤدة هادئة رزينة ، فيعرفهم بأسمائهم التي أطلقت عليهم في دار الفناء ، ولم يكن ذلك تعريفا لهم بمجهول فهم عصبة واحدة منذ الأزل ، ولكن خشية أن تكون شواغل الأرض قد محت سالف الذكرى :

هذا سبينوزا صاحب وحدة الوجود ، وهذا ليبنتز الذي كان للناس بشيرا بما في الكون من خير ، وهذا فولتير عظيم الساخرين ، وهذا روسو نصير الطبيعة . وهذا شوبنهور صاحب إرادة الحياة . وذلك نيتشه صاحب أرادة القوة ... فتباسم الفلاسفة ، وأجالوا الأنظار لكي تتعرف الوجوه . أما ليبنتز ، فقد ثبت بصره في فولتير ، وأخذ يحدق به في شيء من القلق ، ما لبثا أن التقت منهما النظرات ، فأرسلها فولتير ضحكة رقيقة وقال :

فولتير — أراك يا عزيزي قلقا نايا ، لا بطمئن بك المكان ولا تطمئن اليه ؟

ليبنتز — كلا ! بل أنا موفق بحدود ، إذ ضمني وإياك مجلس واحد ، فما زلت أتمنى ذلك وأرجوه ، منذ جاءني نبأك ، وعلمت عنك تلك الطعنات الدامية التي صوبتها نحو رأيي في العالم وخيره

فولتير — أوه ! لقد أنسيت كل شيء . . وكأنما أذكر الآن حلما مبهما يجول في خبايا الرأس . . . هاهو ذا يتجلى ويتضح . . . لقد ذكرت ! فأنت الذي زعمت يوما أن تلك الحياة الفانية مفعمة بالخير مترعة بالآلاء والنعم ، وأنه لم يكن في الامكان أبدع مما كان ! . . هذا كثير — لعمر الحق — أن يقال في عالم سداه الشر ولحمته البؤس والشقاء !

ليبنتز — أليس الله ، وهو رب الكون وخالقه ، حكيما عميق الحكمة ، خيرا واسع الخير ؟ صور لنفسك هذه الحكمة المطلقة قد تآزرت مع ذلك الخير الاسمى في خلق العالم ثم حدثني كيف يكون . أليس من الحق أن يجيء على أحسن ما تجيء العوالم ؟ هذا حق لا ريب فيه ، لأن الله تعالى يصدر عن منطق مستقيم يتفق مع كماله ولا بد لذلك المنطق الكامل ان ينتج عالما أدنى ما يكون الى الكمال لأنه اذا خلق عالما دون المستطاع ، كان في عمله ما يمكن تهذيبه واصلاحه ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

فولتير — أما انني في العالم شرا فحقيقة فوق الجدل ، واذن فاختر لنفسك واحدا من اثنين لا ثالث لهما . إما ان يكون الله قادراً على ان يرفع عن العالم السوء والشر ولكنه لا يريد ، وإما انه يريد ولا يستطيع ، وكلا الفرضين شر من أخيه ! لك أن تقول عن العالم ما تشاء ؛ أما أنا فقد كنت في تلك الحياة الدنيا شقيا بائسا ، قرحت كبدي الكوارث ، وكلم فؤادي العناء والألم ، ومع ذلك فقد كان لزاما علي أن أحيا !! وأحسب اني لم انفرد بذلك العبء الثقيل ، فلست أشك في ان الاحياء جميعا قد عانت من الشر ما عانيت . . تذكر يا عزيزي ليبنتز ذلك العقاب الكاسر ، وهو ينقض على فريسته الوديعة المطمئنة ، فينهشها بمنقاره المرهف العاتي ، وعينا ترتعش منها الفرائص وترتجف الأعضاء ، وعينا تصيح ، فصيحات الغوث ذاهبة في الفضاء والعقاب ماض لا يحول نابا ولا ينزع مخلبا ، وعندئذ هبط على العقاب نسر جارح مزق منه الأشلاء ونثر الدماء ، وأخذ يلتهم طعامه هنيئا لولا أن صائدا من الانس قد كمن له في الغاب ، وما هي الا لحظة حتى

أرسل اليه قوسا كانت تحمل حتفه سهما ، فلما ان جاء ذلك الانسان الظافر الى حومة الوغى ، ودارت رحى الحرب ، داهمه الردى ، فانقلب صريعا يسبح فى لجة من الدماء البشرية فيرطم جسدا هنا وشلوا هناك !! وتدور عجلة الدهر فاذا الانسان الشامخ بانفه قد بات طعاما تتخطفه العقبان والنسور !! تلك هى أسطورة الحياة ياعزيزى : حلقات متلاحقات من عذاب مر أليم ، تنتهى بالحياة الى الموت والفناء .. مأساة ترتعد من هولها الفرائص ، وتطير منها النفوس شعاعا ، أفتزعم بعدهذا أن شقاء الفرد سبيل الى سعادة المجموع وتصيح به وتلك المرتعش المتهدج ان ليس فى الامكان أبدع مما كان ؟ لعمرى انك لفى ضلال بعيد ، الا ان الكون بأسره لينهض الآن لسانا ناطقا بانكار ماتقول ، بل لكأنى ألمح قلبك الذى تحمله بين جنبيك ، ينبض فى ثورة وجموح ليرد مايفيض به رأسك من خداع . أليس من سخرية الدهر وعبث القدر ان تكون الحياة لغزا مغلقا من دون البشر ، وأن يكون الانسان وهو صاحب الدار دخيلا لا يعلم من أمرها شيئا ، فلا يدرى أنى جاءت به الحياة ، ولا أين يذهب به الموت ؟ بارعاك الله ! لله ما أمرها حياة تلك التى كتب علينا أن نحياها حينا من الدهر ، وعجيب الامر أن ترى من الاقوام الغافلين من تنطلق ألسنتهم بحديث السعادة والخير ؟ ! . عفواً أصدقائى ، فانما تحدثكم الآن ما أنحته الحياة فى نفسى من جراح دامية لم تزل عندى عميقة الاثر قوية الذكرى .

سبينوزا — أى عزيزى فولتير ! هون على نفسك الامر ، فليس الفرد الا جزءاً من كل عظيم ، وانك لتبتغى شططا اذا أردت أن يصغى الوجود بأسره الى صوالح الافراد ، وهى متنازعة متنافرة . ان فى ذلك لشراً وفوضى . فلست أرى فى الكون الا قانونا خالداً وصوراً فانية ، وحسبه دقة وكمالا أن يسير ذلك القانون فى استقامة لا التواء فيها ولا شذوذ ، أما هذه الصور المادية الزائلة التى تروح وتغدو ، فلا يضير الكون فى كثير أو قليل أن تشعر بالم أو سعادة ! وهل تستطيع أن تحد ثنى عن الشر والخير ما هما ؟ انهما لفظان قد اصطلح عليهما البشر ، وليس لهما فى عالم الحقيقة وجود ... خذ قلماً وقرطاسا ، وارسم طائفة من المثلثات المختلفة نوعا وحجما ثم اخ منها ما تريد ، وارسم سواها أو لا ترسم شيئا ، والبث هكذا ساعة من زمانك ، غير فى أوضاعها وبدل فى أشكالها ليكون لك فى النهاية زخرف جميل ... هب أن تلك المثلثات كائنات شاعرة يتعاورها السرور والالم ، وأنك علمت أن واحداً منها غاضب لانه جاء من الزخرف فى مكان منحرف ، وان ثانيا بائس مسكين لانه لا يتمتع بأضلاعه الثلاثة تامة كاملة ، وثالثاً يعانى مرارة الالم لان المحاة قد أتت عليه فأزالته من الوجود ... فماذا أنت قائل إزاء تلك الاهواء المتنازعة ؟ انك لن تفهم لها معنى ، لانك تنظر بمنظار آخر أعم وأشمل .

نيتشه — أؤيد سبينوزا فيما يقول ، ولست أفهم هذا التفريق بين الخير والشر ، فكلاهما خير للبشر ، ولو لم يكن الشر خيراً لما صمد فى معترك التنازع على البقاء ، بل لا محى من الوجود منذ أمد بعيد .

فولتير (يضحك) — هل أنا كم حديث الواقعة التى نزلت بلشبونة ، اذ زلزلت (١) الارض زلزالها فأردت ثلاثين ألفا من رجالها ؟ ويأبى القدر الا أن يمعن فى السخرية ، فيجمع عدة من هذه الالوف بين جدران بيت من بيوت الله ، فينقض على البؤساء ذلك البناء المقدس وهم يؤدون الصلاة !! ثم يعلن القساوسة فى جرأة وقحة بأن الكارثة انما جاءت جزاء وفاقا لما قدمت أيديهم من ذنوب !!!

روسو — وهل تريد أن تلقى التبعة على غير الانسان ؟ فلو هجر المنازل وطلق المدن الى حيث الطبيعة الطلقة الطاهرة ، لما تهدمت فوق رؤوسهم جدران ولا ركمت سقوف !

فولتير — هل جاءك يا عزيزى روسو نبأ الفتى كانديد ؟ (٢) ذلك الصبى الالمانى الذى لبث يأخذ العلم عن أستاذ فيلسوف ؟ لقد أبى الدهر عليهما حياة هادئة ، فأرسل عليهما المصاب فى اثر المصاب حتى اضطرا الى الرحيل الى لشبونة ، وكأنما أراد الدهر ألا يغمض عنهما جفنا ، فكانت تلك المأساة المروعة التى حصدت الأحياء حصداً بالالوف ! ولكن الفتى وأستاذه قد أفلتا من يد الموت ، والتقيا فى فزع ورعب ، وبينا هما فى سمر من الحديث ، يرويان ما صادفا من هول ، إذا بامرأة عجوز تجىء اليهما من أقصى المدينة ، فتقص عليهما ما لاقته من هول تشيب له ناصية الطفل الرضيع ، « ولقد حدثتنى النفس مائة مرة بأن ألقى عبء الحياة عن كاهلى ، ولكن على الرغم من ذلك قد أحببت الحياة !! ... »

---

(١) زلزال لشبونة . توفى سنة ١٧٥٥

(٢) قصة ساخرة كتبها فولتير للرد على من يدعى أن فى العالم خيراً

تبت يدا الانسان ، إنه لفي ضلال مبين ، أترون كيف يئن تحت أثقال الحياة ، ثم يقبل راضيا أن يظل ذلك العبء فوق كاهله ، مع أنه يستطيع أن يلقيه الى الأرض بعزمة واحدة ؟ ! ولأعد بكم الى حديث الفتى كانديد ، فقد أرهقته محاكم التفتيش ، ففر هاربا الى بارجواى بأفريقيا ، ولم يكد يجوس خلال أرضها حتى أبصر — ويالهول ما أبصر ! — أبصر رجلا يضم أعواد القصب مرغما ، وهو يئن من فداحة الألم ، كان يعمل مبتور الساق والذراع ، ولا بد أن يعمل في جد . وإلا فضربات السياط — سياط الشركة الأوربية التي تستغله وتستذله — مسلطة فوق ظهره ، ولا يدثره غير أسمال قذرة بالية . . . وهكذا كان كانديد ، كلما قلب صفحة من كتاب الدهر ألفاها مترعة بالعناء والأذى ، وما أحسب الجدران والسقوف قد اقترفت من ذلك العدوان شيئا .

ليبنتز — ومن ذا الذي يود أن يعيش في عالم لا ألم فيه ولا عناء ؟ أليست المرارة القليلة ألذ مذاقا وأشهى طعاما من السكر الحلو ؟ وهل الشر إلا سبيل للخير ؟ فلعلك لو علمت مبعث الشر لخففت من هذه الغلواء ، فقد خلق الانسان مغلولا بطائفة من أصفاد المادة ، ولكنه فطر على أن يجاهد في تحطيمها ما استطاع ليصل الى مرتبة الكمال ، ومبعث الشر جميعا هو ذلك الجهاد العنيف الشاق الذي يبذله الانسان في هذه السبيل ، وإذن فليس الشر مقصودا لذاته ، وإنما هو سلم للصعود الى الكمال .

شوبنهور — لست أرى الا أن الانسانية مدفوعة أمام ارادة الحياة دفع الخراف ، ولقد زودتها بجعبة من الرغبات تلهب ظهرها وتستحثها على السعي كلما أبطأ بها المسير ، وفي تلك الرغبات سم الانسان الزعاف ، لأنه كلما حقق واحدة قامت في سبيله عشرات ، والحياة لا تمنحنا أمنية الا كما يلقي الجواد باحسانه الى السائل المحروم ، فهو يضر كثيرا ولا ينفع قليلا ، لأنه يطيل في أجل بؤسه يوما آخر . سر أنى شئت تجد بين الاحياء تنازعا وتنافرا ، حرب ضروس وقتال طاحن ، وفيم الحرب والقتال ؟ لكي يقيموا حياة كلها تعب وشقاء أمدا قصيرا من الدهر . فلو أننا أدركنا رجحان العناء على الجزاء ، لعلمنا كم نبذل الثمن باهظا لقاء أنفاس معدودات ! الحياة هي الشقاء والشقاء هو الحياة ، وجدير بك — أي عزيزي ليبنتز — أن تنقح من عبارتك بحيث تكون : « ليس في الامكان أسوأ مما كان » ، لقد كان خيرا لنا ألف مرة ألا نكون ! ومن ذا يحدثني عن منزلة

فرعون حزين !

للاديب حسين شوقي

كنا نظن أن الآلهة ينعمون بالسعادة الكاملة ، ولكننا مخطئون لأن فرعون حزين برغم أصله السماوي . . أجل فرعون حزين ، لهذا خرج الى السطح الكبير يستنشق نسيم الليل العليل ويلقي نظرة على السماء التي أخذت تتلألأ أمامه بوقد بدت نجومها تشاهد الملك العظيم الذي ملأ صيته أنحاء العالم بأسه وجبروته . . ثم أخذت النجوم تتساءل : لماذا كان فرعون حزينا ؟ لماذا ؟ أليس قادراً على كل شيء ؟ ألم يشد لنفسه بالأمس رمسا ضخما متينا يضمن له الحياة الثانية التي سيكون فيها كذلك عاهلا كبيرا لقرابته الوثيقة بالآلهة آمون وهوروس وشركائهما ؟ لماذا إذن كان الملك حزينا ؟ قالت إحداهن متفلسفة : لأنه لم يعرف الحب ؛ فتساءلت أخرى : وهل الحب على هذا القدر من الخطر ؟ فأجابت الاولى : أجل ! هو سر الوجود لذلك العالم الازلي وتعزية أهله . . ولكنها لم تتم كلامها لأن نجما آخر قاطعها قائلا : وما صورة الحب ! وما مادته قالت : ليست له صورة ، وما هو بمادة . . لحسن حظ البشر ، لأنه لو كان مادة لاكتنزه الناس كالذهب من زمان بعيد في خزائن بنك فرنسا أو بنك الاحتياطي الأمريكي . .

أجل ! فرعون كان حزينا لأنه لم يعرف الحب ! لقد صدقت تلك النجمة في زعمها ، لأن علاقته بمن حوله من الناس لم تكن

الحياة : فيم بقاؤها وما غرضها ؟ ولشد ما يدهشني على الرغم من ذلك أن أرى الكائنات بأسرها تتشبث بالحياة ، وتبذل في حراستها كل ما تستطيع ، كأنما هي ذخر ذو غناء ! ألا من يحدث الناس عني أن يكتموا الأنفاس دفعة واحدة لكي يردوا للحياة كيدها بكيد ؟

* * *

تلقيت من سقراط في مصر خافض رأسه خاشع ، وسألته أن أطلع قراء الرسالة على حديثهم ذاك ، فخشي أن ينسب القراء الى كاتبه بعضه أو كله ، فطمأنته بأن القراء في مصر على كثير من الذكاء.

زكي نجيب محمود